المعجـــمُ العربـــيُّ

مقدّمة في أهميته، ومدى حاجتنا إليه:

قالَ الطّالبُ الفَتى لأُسْتاذِهِ الشّيْخِ: لقد قرأتُ ما كتبتَ في الفصل الأوّلِ عن النّظام اللّغوي للعربيّة ومستوياته، وأشكرُ لَكَ ما صَنَعْتَ، لقد كـــان درســـاً خليقـــاً بالقراءة، لقد حَبَّبْتَ إليَّ دَرْسَ العربيّةِ، وأحْسَسْتُ، وكأنّي أقرأُ العربيّةَ لأوّل مـــرّة. حَقّاً، لقد صُغْتَ المادةَ بأسلوب أخّاذ، وعرضْتَها بطريقةٍ شائقةٍ، ممّا جعلنـــي أُقبـــلُ على قراءة الفصل في جَلْسَةٍ واحدة دون انقطاع، على غير عادتي. وأعِـــدُك بـــأنْ أُثابرَ على تعلّمها، وأرجو أنْ تتناولَ في هذا المجلس درْســـاً جديـــداً مـــن دروس العربيّة، ألا وهو المعجمُ العربيُّ وطريقةُ استخدامِه.

قال الأُسْتاذُ الشّيخُ لتلميذِهِ الفتى: لقد أحسنتَ يا بُنَيّ، وهذا الدرسُ من أمتعِ دُروسِ اللّغة العربيّة، وقد اخترتَ الوقـــتَ المناســـبَ لدراســـته، قبـــل أنْ نتنـــاولَ النّصوصَ الأدبيّة، إذْ ستمرّ بنا مفرداتٌ، ربّما تستغلقُ على فهمك، فـــلا أريـــدُ أن ترهقني بالسّؤال عن معانيها. وبعد أن أشرحَ لك هذا الدّرسَ تَستطيعُ أن تعتمد على نفسك في فهم دلالاتِ الألفاظِ. ولو لم تبادرْ إلى سؤالي عن المعجم، لدعوتُك إلـــى مجلسي، وطلبتُ إليك أن تصغيَ إلى هذا الدرس، لأنّه جديرٌ بالاهتمامِ.

قال الطّالبُ الفتى لأستاذه الشّيخ: وهَلْ للّغةِ العربيّة معاجم؟ وإذا كان ذلك كذلك، فما هو المعجم؟ وما حاجتنا إليه؟

قال الأستاذُ الشّيْخُ لتلميذه الفتى: نَعَمْ، يا بُنَيّ، إنّ للّغةِ العَربيّةِ معجمـــاتٍ كثيرةً شأنُها شأنُ اللّغاتِ الحيّة، كالانجليزيّة، والفرنسيّة وغيرهما.

واعلَمْ يا بُنيّ، أنّ معانيَ المفرداتِ أكثرُ جوانبِ اللغة تطوّراً، وأنّ لُغتنا العربيّةَ مـــا زالتْ تؤدّي رسالتها الحضاريةَ والإنسانيةَ منذ أكْثَرَ من عشرين قرناً. وأنّ هنـــاك مفرداتٍ اختفتْ من حياة أبناء العربية، وأنّ هناك مفـــرداتٍ تطـــوّرتْ دلالاتُهـــا، وتغيّرتْ عَبْرَ رحلةِ العربيّةِ الممتدّة.

وَاعْلَمْ يا بُنيّ، أنّه لا يستطيعُ أيّ إنسان، كائناً مَنْ يكونُ، ومهما كان مستواه العلميّ – كما يقول علماء اللغات – أنْ يحفظَ الثّروةَ اللُّغويةَ للغتهِ القوميّة، وأنّ ما يحفظه الواحد منّا لا يتجاوز بضع مئات من الأصول، وربّما يصل – أحياناً – إلى بضعة آلاف كلمة، إذا أفرطْنا في حُسْنِ الظنّ بعلمه.

قال الطّالبُ الفتى لأُستاذه الشّيْخ: معنى ذلك أنّ ما أعرفُ من لُغَتي ليس إلاّ نَزْرا يسيراً، إذا ما قيس بمعجم لسان العرب، الذي يضمّ ثمانين ألفَ جَذْرٍ لُغويّ، وعدداً من المشتقّات يصعبُ إحصاؤه. فكيف السّبيلُ إلى فَهْم تلك الدّلالات اللغوية؟

قال الأستاذُ الشّيخُ لتلميذه الفتى: أنا مسرورٌ منكَ يا بُنيّ، لأنّك وضعتَ يَدَك على المشكلة، وبدأتَ تلتمسُ لها – الآن – حلاّ. وقبل كلّ شيء، أريدُ أنْ أسألك سؤالاً واحداً، آمُلُ أن تُجيبَ عنه بأمانة: **هل في مكتبتك الخاصّة مُعْجَمٌ من مُعْجَماتِ اللّغةِ العربيّة؟**

قال الطالبُ الفتى لأستاذه الشّيخ: لا، يا سيّدي. فليس لَدى أُسْرَتي كلّها معجمٌ واحدٌ... فإنّني وزملائي نكتفي – حينما نقرأ النصوص – بالشّروح التي يضعها المؤلّفون في هامش كلّ صفحة، وإذا ما استغلق على فهمنا معنى، ليس مشروحاً في هامش الصّفحة فنتوجّه إلى أساتذتنا، نسألهم، وإذا ما شعرنا بحرج من كثرة أسئلتنا فهمنا المعنى فهماً إجماليّاً من خلال توجيه السّياق، الذي يردُ فيه.

قال الأستاذُ الشّيْخُ لتلميذه الفتى: لله درُّكَ يا بنيّ! أَفَيَليقُ بطالب الجامعة أنْ يحصّل علومه ومعارفه بهذه الطريقة البائسة؟!

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: إنّك تُخفي في نفسك من الضّيق بي، والضّجر من مجلسي ما الله مُبديه، وأنت – أيُّها الشّيْخُ الجَليلُ – محقٌّ في ذلك، لانقطاع الصّلةِ بيني وبينَ المعجم العربيّ. وأعدك – إنْ أقنعتني بفوائد المعجم – أن تتعزّز صِلَتي به، وأن أجعله مستشاري اللّغوي. وأريد منك أنْ تعرّفَ لي المعجمَ، وتبيّن مدى حاجتنا إليه.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: اعْلَمْ يا بُنَيّ، أنّ للمعجم تعريفاتٍ متعدّدةً، بَيْدَ أنّي سأضع بين يديك تعريفاً موجزاً مفيداً، اقتبستُه من المعجم الوسيط، إذْ عرّف المعجمَ بأنّه[1] "ديوان لمفرداتِ اللّغة، مُرَتّبٌ على حروف المعجم، والجمعُ مُعْجَماتٌ، ومعاجمُ. ولكنّي صراحةً أميلُ إلى الجمع الأوّل، وهو "معْجمات"، لأنّ كلّ ما بُدِئ بميمٍ زائدةٍ فبابُهُ التّصحيحُ، أي يُجمع جَمْعاً سالماً.

قال الطالبُ الفتى لأُستاذه الشيخِ: وَهَلْ كلمةُ "معجم" تطلق – وَحْدَها – على هذا الضّرْب من التّأليف؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: لا، يا بُنَيّ، فإنّي وجدتُ بعضَ اللُّغويّين يطلق على مؤلَّفه كلمة (قاموس)، ومُنْذُ عصر الفيروزأبادي، الذي سمّى معجمه "القاموس المحيط"، أَخذتْ هذه الكلمةُ تفرض نَفْسَها بقوّة حتّى يومنا هذا، وإنْ كان بعضُ العلماء قد قَصَرها على المعاجم ثنائيّة اللّغة، إلى أنْ جاء مَجْمَعُ اللُّغةِ العربيّة في القاهرة، وأجاز استعمالَ كلمةِ (قاموس)، لتطلقَ على كلّ معجمٍ لُغويّ على التوسّع[2].

قال الطالب الفتى لأستاذه الشَّيْخ: بارك الله فيك، ونفعنا، ونفع جميع شُداةِ العربية بعلمك، أريد أن أسألك: من أين جاءَتْ تسميةُ المعجم بهذا الاسم؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: اسألْ، يا بُنَيّ ما تريد، ولا تشعرْ بالخجل، ولن يضيقَ صدري بأسئلتك مهما كانت، لأنّ سَدَنَة العربيّة وطّنوا أنفسَهم على الصّبر، فالغضبُ والضّيقُ والضّجر ليس من سلوك العلماء، فاطمئنّ يا بُنيّ.

ويبدو أنّ أَحَدَ التّلاميذ، سأل – قديماً – شيخنا ابْنَ جنّي هذا السّؤالَ، فأجابه قائلاً[3]: "قولهم أعجمتُ وزنه أفعلتُ، وأفعلتُ هذه، وإنْ كانتْ في غالبِ أمرها، إنّما تأتي للإثبات والإيجاب، نحو أكرمتُ زيداً: أي أوْجَبْتُ له الكرامة، فقد تأتي أفْعَلْتُ – أيضاً – يُراد بها السّلبُ والنّفيُ، وذلك نحو: أشكيتُ زيداً، إذا أزلتُ شكواه،

([1]) المعجم الوسيط: مادّة عجم.

([2]) المرجع نفسه: مادة "قَمَسَ".

([3]) ابن جنيّ، أبو الفتح عثمان: سرّ صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقّا، القاهرة، 1954، 39/1.